

حكاية القرد ميمون والحمار

بقلم محمد يوسف عدس

ثلاثة من الكائنات العجيبة والمثيرة اكتسبت -في نفسي منذ سن الطفولة حتى اليوم - مكاناً خاصاً من الإعجاب والاحترام الشديدين .. هي: الحمار و القرد والعنزة ، يجمعهم معاً في ذاكرتي مشهد مثير للإعجاب والاستحسان .. لقد بهرنى هذا المشهد وأنا طفل في قرية بهوت وكنت لا أزال في سنّ ما قبل المدرسة والكتاب ، حتى أنني لم أكن أتربح موكب القرادتي عندما يزور القرية ليتجول في حاراتها مع حماره -والقرد والعنزة - يعتليان ظهر الحمار.. يستعرض بهما ألعابه أينما حطّ رحاله ، وقد أحاط به جمهور من الكبار والصغار، وقد أخذتهم الدهشة والإعجاب .. فلا يبخلون على القرادتي بما في جيوبهم من القروش والملايم؛ كل حسب قدرته المالية .. حتى تغرب الشمس وينصرف القرادتي إلى حال سبيله ..

وهكذا كان لهذه الكائنات في مجموعها أعماق بعيدة الغور في ذاكرتي منذ الطفولة المبكرة ؛ فقد بهرنى سلوكها وطاعتها الفورية ، وانسجام حركاتها مع إشارات القرادتي وأوامره- وفرضت ذكرياتها على قلبي -وأنا كاتب في زمن النضج العقلي والوجداني- مقالات عرضت فيها كثيراً من الحكمة والعبر.

وقد أورتني هذا المشهد عادةً لازمتني طول حياتي ؛ كنت أراقب فيها سلوك الحيوان في الطريق وفي الحقل والمزرعة ، فأدهشني أن الحمار أكثر تحضراً وأكثر حساسية من بعض الناس في استخدام الطريق العام ، حتى أنني إذا نسيت وانسقت بحكم تأثير الثقافة الجارفة؛ فوصفت إنساناً غيبياً بالحمار، أو وصفت المقلد الأعمى بقرد - ينتابني بعدها شعور بوخزات الندم.. وعادة ما أعتذر عن هذا الخطأ علناً ؛ وقد فعلت هذا في مقالتي المنشورة أكثر من مرة ؛ حتى أنني أفردت مقالة خاصة بعنوان "اعتذار إلى الحمير" نُشرت في موقع "العرب نيوز" بتاريخ ١٦/١٢/٢٠١٢م ، أشرت فيه إلى حقيقة أنني مدين لأحد الحمير بحياتي .. ولا زلت أتذكر شكله ولا أنسى نبلة .. أذكر ضمن ما كتبت- في هذا المقال -معبّراً عن انطباع صادق عززته بالملاحظة والبحث العلمي المنهجي .. قلت:

"لست أنسى أبداً أن واحداً من الحمير أنقذ حياتي وأنا طفل صغير عندما ضللت الطريق في مزرعة لأبي ، ولم أهد إلى طريق العودة .. ولكنني تحايّلت حتى تمكّنت من امتطاء ظهر حمار لنا ، فحملني إلى المنزل بمهارة أذهلتني ؛ وظلّت موضع إعجابي وامتناني عبر سبعين سنة أو تزيد.. وقد أكسبنتني هذه الواقعة حباً للحمير، وجذبت إهتمامي لملاحظة سلوكها فأدركت -بالمقارنة- كيف تتفوق على كثير من بني آدم ؛ فلطالما لاحظت في الطريق مجموعات من راكبي الدراجات الهوائية يسرون جنباً إلى جنب في عرض الطريق ولا يتركون مساحةً لمرور السيارات إلا بعد تكرار وإلحاح في التنبيه والزجر، بينما تجد أن أيّ سرب للحمير يلتقط إشارة السيارة برهافة حسّ، وسرعان ما تصطف في طابور واحد خلف بعضها البعض

فى سلوك [حضاري] ملفت للنظر ؛ لتسمح لسيارتك بالعبور.. كذلك لاحظت على طول الطريق الزراعي من القاهرة إلى الإسكندرية -وقد سلكته مئات المرات- أن الحمير لا يمكن أن تعبر الطريق من جانب إلى الجانب الآخر إلا إذا تأكدت من خلوّ الطريق تماما من السيارات القادمة. وقد تبين لي أكثر من هذا أن لهذه المخلوقات موهبة فى تقدير المسافات وسرعة السيارات المارة ، يجعلها تتجنب حوادث الطريق ، إلا إذا دفعها بالضرب دفعا - رجل أحمق أو صبيّ طائش.. حينئذ تقع الكارثة".

"ومن خبرتي الطويلة فى ملاحظة سلوك الحمير ، عرفت أنها تستفيد من تجاربها الخاصة وأنها تتفوق على الإنسان فى هذا المجال ؛ فلا تقع فى نفس الخطأ مرتين أبداً.. وفوق كل هذا لم أصادف فى حياتي حماراً واحداً كذب على نفسه أو كذب على الآخرين، بينما عرفتُ كثيرا من البشر جعلوا الكذب على الناس والكذب على أنفسهم، مهنةً لكسب العيش، وصناعةً لتضليل الناس وامتطاء ظهورهم للوصول إلى أهدافٍ أنانيةٍ ، بخسّةٍ وانتهازيةٍ منقطعة النظير " .. وإن شئت معرفة مزيد من التفاصيل والملاحظات العلمية اقرأ هذا المقال المنشور فى موقع "العرب نيوز بتاريخ ١٦/١٢/٢٠١٢م:

<http://www.alarabnews.com/show2.asp?NewId=30952&PageID=12&PartID=1>

وكتبت فى هذا السياق ثلاث مقالات أخرى عن العنزة بعنوان: " قصة العنزة" و "نظرية العنزة" و "العنزة والقرد فى الدستور الجديد" على التوالي فى هذه الروابط الثلاثة:

<http://www.nilemotors.net/Nile/58838-a.html>

<http://myades.com/Articles/Gaza/6.pdf>

<http://marsadpress.net/?p=6269>

الشيء الذى لم أفهمه من أدبيات العرب عن القرد ، ومن التراث الشعبي المصري بالذات- إطلاق اسم "ميمون" عليه ..! ، وقد نشأ فى ذهنى سؤال مُلحّ : ما هو أصل هذه التسمية ، وماذا تعنى على وجه التحديد..؟

لقد اعتدت أن أسمع من القرداتي وهو يخاطب القرد ويطلب منه أن يفعل ما يأمره به ؛ فيغنى له هذه الأغنية التي حفظتها كما حفظها الأطفال ، ورددوها عندما يمثل أحدهم دور القرداتي والآخر دور القرد: "الليل الليل الليل ..الليل ياميمون .. أرقص ونا ممنون .. نام نوم العازب .. واعدن عجين الفلاحة" .. بعدها ينهمك القرد فى حركات مثيرة للضحك وهو يمثل نوم العازب القلق .. والفلاحة النشيطة وهي تعجن .. ولكننى لم ألتفت إلى بحث المسألة إلا حديثاً جداً فهالنى ما اكتشفته فى قاموس المعاني ؛ حيث وجدتُ أن "القرد ميمون هو قرد

من فصيلة كلبية الرؤوس ، وهو أقبح القروذ وأشرسها خُلُقًا .. وقد استغل أحد الظرفاء هذه الحقيقة فكتب ساخرًا:

ضاق ميمون ستين عامًا من سخرية الحيوانات وهم ينادونه يا قرد يا قرد ... فقرر أن يذهب إلى صديقه الذئب شاكيًا فأشار عليه أن يذهب إلى محكمة الغابة يشكو الحيوانات التي تناديه باسم القرد .. لكن المحكمة حكمت على ميمون أنه فعلاً [قرد ابن قرد] .. فاحتال له الذئب وأخبره أنه يمكنه أن يخفي أوراقه وشهادة ميلاده الأصلية المذكور فيها (النوع : قرد) وأن يستخرج أوراقاً جديدة يثبت فيها أنه غزال .. وبالفعل قدم الأوراق الجديدة للمحكمة ؛ فقرر فضاتها المحترمون: أن ميمون -بناءً على المستندات المقدمة إلينا - هو غزال من أسرة غزلان عريقة .. وعلى هذا أمرت بمحاكمة وحبس كل من يسخر من الميمون الغزلاني الشريف أو يصفه بأنه قرد ..

ويبدو أن هذه التسمية التي شاعت عنه بعد ذلك في أنحاء الغابة قد أثرت على نفسيته وسلوكه ؛ فانخرط في تمثيل دوره كزعيم للغزلان وللزرافات أيضا .. ووجد قطعاً من كلا الصنفين تصدّقه وتأمّر بأمره وتهتف له .. فانتفخت أوداجه لدرجة أنه نسي أصله القردي تماماً وصوّر له الوهم أنه يمكن أن يكون زعيماً للغابة وملكها بدلاً من الأسد الذي شاخ ، وخدمت همته وفقد بريق الزعامة .

ولكنى -مع كل هذا- لم أكن أتصور أن يستغل القرد ميمون هذه الواقعة لكي يتطّلع إلى الارتقاء في سلم الوظائف العسكرية ليصل إلى أعلى رتبة في الجيش ، ثم يطمع في أعلى الوظائف المدنية ليصبح رئيس دولة .. ستقول: هذا شيء غير معقول .. ولكنه حدث بالفعل!! وأسأل الحمير والقروذ في دولة بقرستان لتتأكد بنفسك!!

myades34@gmail.com

(نشر المقال في جريدة الشعب بتاريخ ١٠ يولية ٢٠١٧م)